الحملة العسكرية على رأس الخيمة
١٨١٩ - ١٨٢٠

احمد عبيدلي *

شكلت معركة رأس الخيمة في العشرينات من القرن الماضي حادثة هامة فاصلة في تاريخ منطقة الخليج العربي الحديث . فلقد كانت نتائجها العسكرية المتمثلة في الانتصار البريطاني والهزيمة العربية ، بداية لتكريس الهيمنة البريطانية على الساحل العربي الغربي من الخليج العربي ، وكانت المدخل الى تبلور السياسة البريطانية التفصيلية والاشراف الانجليزي المباشر على سير الامور ومجراها هناك ، وكانت اعظم ضربة عسكرية توجه الى ذراع العرب المسلح في تلك المياه الممتدة على ارجاء المحيط الهندي الفسيح . فبعد تلك المعركة لم تعد بريطانيا والدول الغربية بحاجة الى اية اجراءات عسكرية بحرية كبيرة لتحطيم القوة البحرية العربية هناك . وهذا البحث هو اطلالة علمية مكثفة على تلك المعركة التي دمغت نتائجها سير الاحداث في القرن والنصف الذي تلاها .

اولا : حول الاوضاع التي سبقت الحملة :

منذ اكتشاف فاسكو دي جاما الطريق من اوروبا الى الهند عبر رأس الرجاء الصالح وذلك في عام ١٧٩٨ ، شن الاوروبيون جميعا حملات مستمرة على القوى العسكرية البحرية العربية بهدف الاجهاز عليها وتحقيق السيطرة الاقتصادية كنتيجة وهدف . ولقد ساد الاوروبيون ردحا من الزمن حتى قيض لدولة اليعاربة التي قامت على يد الامام ناصر بن مرشد اليعربي ان تطردهم من آخر مواقعهم في

---

* كاتب وباحث في تاريخ منطقة الخليج العربي .

الساحل العربي ، وان تعيد تأسيس قوة عسكرية بارزة وحديثة تنافس القوى الاوروبية ، وتهاجم البرتغاليين وتهزمهم ، وتضع الاساس لقيام امبراطورية عربية افريقية ــ آسيوية ، ورثها آل بوسعيد فيما بعد . ولقد شهدت دولة اليعاربة حربا أهلية وخلافات على السلطة اثر وفاة الامام سلطان بن سيف والمناداة بابنه سيف بن سلطان اماما ، وكان آنذاك في الثانية عشرة من العمر ، وذلك في العام ١٧١٨ م . وتتابعت حروب مريرة شهدت تدخل قوة اجنبية محلية في شؤون عمان الداخلية ، واستمرت حتى الاربعينات من القرن نفسه ، عندما استطاع احمد بن سعيد والي صحار أن يحقق هزيمة الفرس واخراجهم من المنطقة وان ينهي الحرب الاهلية الدائرة ، وان يضع الاسس لقيام دولة آل بوسعيد التي لا تزال تحكم في عمان . من جهة اخرى شهدت السنوات الاولى من حكم احمد بن سعيد بروز قوة ناشئة على الاطراف الشمالية من عمان ، لكنه لم يكن في وضع يتمكن فيه من فرض هيمنته على الاطراف ، خصوصا وان وضعه الداخلي لا يزال بحاجة الى مزيد من الجهد . وكانت هذه القوة هي قوة القواسم . ولم يكن جديدا على بلاد العرب والاسلام ، أو على منطقة الجزيرة العربية او عمان ان تشهد مثل هذه الظاهرة وهي بروز قوة جديدة تغتنم فرصة انشغال المركز بأمور تمنعه من فرض السيطرة في فترة من الفترات ، او تجد نفسها في خلافات دينية ومذهبية معه . وكان القانون السائد هو أن تلك القوى تتصارع فيما بينها ، وتعتمد على موازين القوى المحلية او القريبة ، لكن داخل محيط الدائرة الاسلامية ذاتها ، وتنتهي بسيادة طرف يمتلك المقدرات الاقوى ، يقوم بوضع الاسس لدفع مجمل الاوضاع نحو مستويات أعلى . وقد صاحب قيام دولة القواسم ونشوء سلطة آل بوسعيد ، وجود القوى الاوروبية في المنطقة . ومنذ السنوات الاولى لقيام دولة القواسم دخل الطرفان في صراع دام ، شكل فيه مقتل سلطان بن احمد حاكم عمان في عام ١٨٠٤ م على يد القواسم انعطافة حاسمة .

كانت عمان هي المؤهلة للوقوف بوجه الاوروبيين ، ولو قدر للقوتين القاسمية بروحها الهجومية والبوسعيدية بما امتلكت من امكانيات وخبرات بحرية ، وقوى بشرية ، ان تتحدا سلما أو حربا ، لشكلتا قوة ضاربة بوسعها الوقوف في وجه القوى الاوروبية التي اجتاحت المياه الاسلامية والعربية . وبالرغم من ان التاريخ لا يحتمل مثل هذه الـ«لو» ، الا اننا اردنا أن نبين الاتجاه والهدف الذي سارت عليه الدول الاوروبية في محاولتها الاستفادة من الخلاف القاسمي البوسعيدي ، والخطأ الذي كان يمكن أن يتجنبه حكام ذوو مقدرة وقوة مثل السيد سعيد بن سلطان (١٨٠٦ ــ ١٨٥٦ م) في تحالفاتهم الدولية .

انطلق القواسم ، منذ نشأتهم كقوة سياسية ، في شن حرب ضروس وبطولية ضد القوى الاوروبية لاستعادة ما نهب ، ولتجريد الاثرياء الدوليين الجدد ، الذين

بنوا ثروتهم وسطوتهم واساطيلهم على حساب دم العرب وخسائرهم الماحقة التي حلت بهم اثر تجريدهم من دورهم التجاري الذي كانوا يقومون به . كانت الحرب البرية التي تخوضها القبائل منطلقا لهم ومبررا ودافعا لشن الحرب البحرية . وامتزج كل ذلك مع الدعوة السلفية التي بدأت تظهر من وسط الجزيرة بحيث اصبحت الحروب البحرية امتدادا للجهاد ضد المعارضين وضد من جردوا المسلمين من حقوقهم التاريخية بتلك المناطق .

وتعمد الاوروبيون الصاق تهمة القراصنة بـ « صقور البحر » الذين يفترسون الرجال باسم « الجهاد » (١) وذلك لتبرير وجودهم في تلك المياه ولاضفاء الشرعية عليه ، ولايجاد المبرر ضد القواسم . وحتى هذه القرصنة بالمفهوم الاوروبي كانت تمارس شرعا من قبل تلك الدول الاوروبية في ذلك الحين دون اية حقوق تاريخية . فقد كانت فرنسا تشجع بعض بحارتها المشهورين بالجراة ، على مهاجمة سفن « الاعداء » ومصادرة كل ما يغنمونه منها لحسابهم الخاص .

وجه القواسم نشاطهم ضد الانكليز ، لكنهم شنوا في الوقت ذاته حملات شديدة ضد السفن المسقطية . ولقد عانت بريطانيا الامرين منهم ، وحاولت ان تصل الى صلح معهم ، وشنت ضدهم حملتين في ١٨٠٥ و ١٨٠٩ دونما نجاح حقيقي (٢). وقد ادى بها ذلك الى ان تسعى لشن حملة ساحقة ضدهم . وهذا ما تم في (١٨١٩ ـ ١٨٢٠) .

ثانيا : الحملة البريطانية الكبرى ١٨١٩ ـ ١٨٢٠

ضاقت بريطانيا ذرعا بالنشاط القاسمي الذي تواصل بالرغم من الضربات التي وجهت الى مركز الدولة السعودية على يد محمد علي باشا . وفي العام ١٨١٦ اتخذت السلطات البريطانية بالهند قرارا بشن الحملة ، لكنها ارجأت التنفيذ بسبب اضطراب الاوضاع في الهند (حروب الجوركا ١٨١٤ ـ ١٨١٥ وفي بنداري ، وحرب المهارتا ١٨١٧ ـ ١٨١٨) (٣) . وفي ١٨١٧ اصدر الحاكم العام للهند المركيز هاستنكز ، تعليماته الى نيبين حاكم بومباي ، بأن يقوم بتحقيقاته باسرع ما يمكن عن « حجم وطبيعة القوة المتطلبة لهذه المهمة » (٤) . وكانت الحكومة في بومباي مستمرة في تسيير دورياتها من السفن البريطانية على طول الخليج ، واضافة الى ذلك فان الحكومة البريطانية كانت تود ان يؤدي تقدم القوات المصرية الى الشرق الى تسهيل المهمات البريطانية هناك (٥) .

بدأت السلطات البريطانية تجمع المعلومات بشكل مكثف تمهيدا للاعداد للحملة . ولقد تركزت على ثلاثة مصادر اساسية (٦) هي :

١ ــ تقرير تايلور : وضعه الكابتن روبرت تايلور الوكيل السياسي المساعد في تركيا العربية بناء على طلب نيبين . وحسب رايه فان الموانـــي الاساسية للقواسم على ساحل الخليج هي « **راس الخيمة** » **والجزيرة الحمراء وام القيوين وعجمان والشارقة ودبي والزبارة شمالا** . وهناك **خور حسن والقطيف والعقير** ، واضاف الى ذلك **ابو ظبي** وهي الميناء الرئيسي عند بني ياس،ومواني **لنجة وخارج** على الجانب الفارسي من الخليج العربي ، وجميعها في حوزة القواسم ، وتدخل حسب رايه ضمن ذلك النشاط .

٢ ــ تقارير الضباط التابعين لبحرية بومباي : قام اولئك الضباط بتزويـــد نيبين بمعلومات اضافية عن امكانيات القراصنة البحرية ــ حسب التسميـــة البريطانية والتي سترد على هذا النحو ضمن الرؤى والكتابات البريطانية أدناه . وقد افادت تلك المعلومات أن في وسع القبائل العربية أن تقذف الى البحر بـــ ٨٩ سفينة حربية كبيرة ، ١٦١ سفينة اصغر ، وعدد من الرجال على هذه السفن يفوق العشرة آلاف مقاتل .

٣ ــ معلومات البريجادير جنرال ليونيل سميث : وقاد سميث حملة ١٨٠٩ ضد القواسم وهو الذي ابلغ نيبين ان عملية القضاء على القواسم ومعاقلهم قضاء مبرما تتطلب ما لا يقل عن ٣٠٠٠ رجل تعززهم قوات من المدفعية .

ولقد حول نيبين كل هذه المعلومات الى المركيز اوف هاستنكر وذلك فـــي شهر سبتمبر ١٨١٨ ، وعززها باقتراح لاعداد حملة وارسالها على وجه السرعة الى الخليج (٧) .

ولم تكن بريطانيا حتى ذلك الوقت قد اتخذت سياسة واضحة وتفصيلية ازاء ما ينبغي لها ان تعمله في سواحل الخليج الغربية العربية، فمنذ ان حلت بريطانيا مكان القوة البرتغالية ، كانت السواحل الشرقية هي محط الاهتمام بسبب ثرواتها وكثافة سكانها واتساع اسواقها ، مقارنة مع الاوضاع على السواحل الغربية . وهذا ما جعل الخطوط العامة التي ينبغي على قائد الحملة أن ينفذها بعد تحقيق مهماته العسكرية موضع اخذ ورد بين أوساط مجلس حكومة بومباى ، وبالذات بين الحاكم نيبين وكل من فرانسز واردن الامين الاول للحكومة والحاكم العام للهند هاستنكر . وقد تركزت الخلافات حول مصير البحرين : اتسلم الى حاكم عمان ام تترك على حالها مستقلة مع دعم بريطانيا . وهناك المنطقة الساحلية من عمان ، التي يسيطر عليها القواسم ، أتعاد الى حاكم عمان ام يجري الاعتراف بحاكمهـــا وذلك بعد قبولهم بالشروط البريطانية . ومسألة تحديد موقع اقامة قاعـــدة بريطانية هناك ، ومن يتحمل تكاليفها ، وهذا يعيد نقاش مسألة تسليم البحريـــن الى السيد سعيد بن سلطان لتمكنه من الصرف على قاعدة بريطانية تقام فـــي الخليج . ثم كانت هناك قضية التحالف مع القوات المصرية ومدى ذلك التعاون(٨) .

كل تلك المسائل جرى التراسل حولها ودار نقاش مطول بين كافة المسؤولين البريطانيين ، منطلقين من مصالح بريطانيا التي تضررت الى حد كبير من جراء نمو القوة القاسمية وروحها الهجومية ، وملتزمين بمنطق السياسة البريطانية القاضية بعدم الرغبة في التوغل في داخلية الجزيرة العربية ،ومن مخاوف بروز قوة بحرية عربية موحدة في المنطقة . وحتى شهر تشرين الاول يبدو ان الانكليز قد توصلوا الى اتفاق واحد هو توجيه ضربة ساحقة للقواسم . وفي ذلك الاتجاه يقول واردن ، وهو الذي شن حملة معارضة لاقتراحات نيبين « اما ان قبائل القرصنة ينبغي أن تلقى جزاءها فهذا أمر لا خلاف عليه » (٩) .

وانطلاقا من هذا الوضع فان نيبين الذي اشرفت مدة خدمته على الانتهاء ، وكان على خلاف مع المجلس ويشكو من تدهور صحته ، ابلغ قائد الحملة الجنرال جرانت وليام كير بأنه سوف يتلقى التعليمات الخاصة بالاهداف السياسية للحملة فيما بعد اما منه شخصيا أو من الحاكم الذي سيخلفه . وفي يومي ٢٧ و ٢٨ تشرين الاول من العام ١٨١٩ صدرت التعليمات العاجلة الى كير بالاقلاع الى رأس الخيمة والاستيلاء عليها وتدمير اسطول القواسم .

ويورد المؤرخ البريطاني لوريمر ان التعليمات التي صدرت الى وليام جرانت كير ، الذي عهد اليه بقيادة الحملة سياسيا وعسكريا ، قد تركت المجال واسعا للقائد البريطاني للتصرف الشخصي ، واوضحت له ان الهدف الرئيسي من الحملة « هو ايقاع عقاب موجع بقواسم رأس الخيمة والقضاء على قوتهم قضاء تاما » ، وذلك بالاستيلاء على المدينة وتحطيم كل سفن وقوارب « القرصنة » وتدمير كل شيء يمكن استخدامه لاحقا في عمل عسكري أو بحري أينما كان موضعه . وتطبيق الاجراءات نفسها على ميناء الرمس وغيره من الموانى التي تؤيد رأس الخيمة ، وتنفيذ الامر ذاته على مواقع الساحل الايراني التي يمكن استخدامها كقواعد أو كملاجىء « للقراصنة » . وكانت القيود التي فرضت على تصرفات القوات البريطانية هي تحاشي القيام بعمليات تبعد مسافة طويلة عن الاماكن التي توجد فيها سفن القراصنة ، الا في الظروف الاستثنائية والقاهرة فقط ، وكان عليها بالنسبة للشاطىء الايراني الالتزام بأقصى ما يمكن من الحرص لعدم المساس بسيادة صاحب الجلالة شاه ايران (١٠) .

محاولات عزل القواسم وتطويقهم :

مهدت بريطانيا لحملتها بمحاولات عزل القواسم عن اى حلفاء محتملين وعن أى قوى مركزية ، وبادرت الى تكتيل قوى عديدة ضدهم . وقد سارت تلك الخطوات في اتجاهات عديدة .

حاولت بريطانيا أن تكتل القوة المصرية بقيادة ابراهيم باشا والتي كانت حينها قد بدأت حملة واسعة ضد الوهابيين ومركزهم في الدرعية . لكن برز خلاف في أوساط السلطات البريطانية في الهند حول هذه القضية . وانتهى الامر اخيرا الى محاولة اقناع القوات المصرية بالتقدم الى نواحي رأس الخيمة والاستفادة من ذلك في الحملة البريطانية ضد القواسم ، اذ سيثير ذلك التقدم الفزع في أوساط القواسم . ولكن السلطات البريطانية لم تكن مرتاحة الى تدخل القوات المصرية في شؤون الخليج (١١) . ولقد وصلت أخبار سقوط الدرعية الى نيبين في نهاية العام ١٨١٨ . وقد اتخذت السلطات البريطانية قرارا بارسال مندوب يحمل هدية الى القائد المنتصر ، وهو ابراهيم باشا ومحاولة الاطلاع على التوجهات المصرية التالية . وجاء في التعليمات التي أعطيت الى الكابتن ج . فورستر سادلير للتوجه الى ابراهيم باشا « والتحرك بما أوتيت من براعة وبمنتهى اللباقة المتاحة للتعرف على موقف ابراهيم باشا بالنسبة الى قيامه بفتوحات أخرى على السواحل العربية والخليج دون ان تظهر بأن لك اى مصلحة مادية في هذا الامر . انما من خلال المباحثات التي ستجريها من غير ان تشير الى شيء قد يؤدي الى توريط الحكومة البريطانية في الاعتراف بفتوحات جديدة لابراهيم باشا في شرقي الجزيرة » (١٢) . غير ان القوات المصرية كانت قد انهت مهمتها وراحت تنسحب من المناطق الشرقية للجزيرة العربية ، ولقد كان استقبال ابراهيم باشا فاترا ، بل ومهينا للمندوب البريطاني ، حينما قدم له هدية هي عبارة عن جوادين هزيلين للحاكم العام رفض سادلير استلامهما ، ولم يتمكن من مغادرة جدة الا في ٢٣ يناير ١٨٢٠ اي بعد ان شارفت الحملة ضد القواسم على الانتهاء (١٣) .

أما الاتجاه الثاني فكان محاولة استقطاب سيد عمان سعيد بن سلطان الى جانب الحملة ، ولم يكن تحقيق هذا الهدف صعبا بسبب التحالف القائم حينها بين السيد سعيد والبريطانيين والذي كان يلتقي على نحو أعمق عند نقطة مواجهة القواسم . وتجدر الاشارة الى أن هذا الحاكم العماني بفضل قدراته وطول الفترة التي قضاها في الحكم والتي بلغت نصف قرن من الزمان ، استطاع ان يوسع امبراطوريته الاسيوية ــ الافريقية الى الحد الاقصى وان يؤسس خلال تلك الفترة أعظم اسطول تمتلكه دولة وطنية بين سواحل افريقيا الشرقية واليابان على حد وصف مندوب الرئيس الاميركي له . وبالرغم من كل ذلك ، فان عهده قد شهد وضع الاساس لانهيار تلك الامبراطورية وتدهور البحرية وانقسام السلطة فيما بعد . ولقد لعب تحالفه مع بريطانيا الدور الكبير في الوصول الى هذه النتائج . كان سعيد بن سلطان يقصد بتحالفه مع بريطانيا أن يزيد من قوته وسطوته في مواجهة منافسيه من القوى العمانية والعربية ، وفي المقدمة القوة الوهابية ، واطماعها في مياه المحيط الهندي وبحر العرب . وفي ذلك يقول المؤرخ العماني الضرير عبد الله السالمي :

« وكذلك استعان السلطان بالنصارى على حرب اهل الشارقة من ارض الشمال فقهر بهم عدوه ، وكانت هذه الاستعانة منه اول سبب تدخلت بـــه النصارى في ممالك المسلمين من اهل عمان ، فبقوا آفة في ذراريه وعلة فـــي مملكته ، يظهرون الصداقة ويضمرون العداوة ، وان أنكى الاعداء من يأتيك في صورة صديقك يظهر محبتك ، ويضمر هلاكك » (١٤) .

اما سالم بن حمود السيابي ، **صاحب ايضاح المعالم في تاريخ القـــواسم** ، فيرى ان سلطان مسقط قد وعد البريطانيين بما يحتاجونه من عون :

« لاغراض في نفسه كان يأملها ، ونوايا في قلبه كان يكنها ، واذا راى الفرصة لا يضيعها ، وقد راى الوهابيين يزدحمون على عمان بطلق وبجهـــد ، والجنود المصرية تحاول اجتياح الساحل وقد وصلت القطيف ، مع اعتقاده بأن القواسم قد بداوه بالشر اذ قتلوا اباه ، ورأى الصوت العالي في هذه الاطـــراف لبريطانيا ، ورأى الالتفاف حول ركبها وان كان يحس منها لفح وهج ، ولكـــن عاجل الضرر أحق بالعلاج من آجله » (١٥) .

وهكذا كان سعيد بن سلطان على استعداد للتعاون مع بريطانيا بسبب اوهامه بأنها ستعينه في تحقيق توحيد اجزاء مملكته ، بينما لم تكن بريطانيا على استعداد لرؤية بروز دولة قوية وموحدة في تلك الاجزاء من الوطن العربـــي ، وبالذات اذا ما بدا في وجود طموحات وقدرات بحرية . وكان سعيد بن سلطان قد دخل في حروب مريرة مع القواسم من اجل استعادة السيطرة العمالية المركزية على تلك الاجزاء وبدا انه استطاع ان يحقق نوعا من التحالف مع الشيخ القاسمي المعزول سلطان بن صقر والذي استطاع الفرار من لدن سعود بن عبد العزيز ووصل الى الشحر ومنها الى سعيد بن سلطان . والذي « أكرمه السيد سعيد غاية الاكرام ثم رجع الى داره جلفار . وكتب السيد الى الانكليز بوصول سلطان بن صقر اليه ، وانه صار صاحبه وصاحبهم ، وعاهده على كف المظالم بـــرا وبحرا » (١٦) .

وقد ارسل نيبين في تشرين الاول ١٨١٩ السير اندروجيركس مـــن جيش بومباى الى مسقط وفيها تعهد له السيد سعيد قائلا انه اصدر الامر بتجميـــع الخرفان والعجول وغيرها من المستلزمات في بندر عباس ، وبالاضافة الى تجهيز ٧٠ زورقا لانزال الجنود والمعدات ، وابدى استعداده بتسيير ٤٠٠٠ من رجال القبائل الى راس الخيمة للمساهمة في الهجوم على البلدة كما وعد بأنه سوف يقود شخصيا قوة من ثلاث سفن حربية و ٦٠٠ الى ٨٠٠ جندي للاشتراك فـــي الهجوم البحري ، وعندما وصل كير الى مسقط في الاسبوع الثالث من نوفمبر كرر سعيد تلك الوعود للمبعوث البريطاني (١٧) . وفي كانون الاول كان الاسطـــول

البريطاني يشق طريقه الى راس الخيمة بالاشتراك مع فرقاطتين من مسقط ومع السيد سعيد نحو ٦٠٠ مقاتل ، وكان يتوهم ان تحقيق السيطرة المركزية العمانية قد باتت وشيكة . سارت الخطوات البريطانية في اتجاه ثالث هو فارس ، اذ كانت للحكومة الايرانية ، التي كانت لها صلات مع شيوخ لنجة وموجو وخارج وشيرو ، ممن تتصور بريطانيا انغماسهم في « عمليات القرصنة » وانهم يستاهلون العقاب . وخشيت بريطانيا ان تسيء الحكومة الايرانية وبتأثير من اولئك الشيوخ فهم اهداف الحملة ، ولذلك أرسل الدكتور جيوكس خطابات تطمين من حاكم بومباى لكل من الحاكم الايراني لاقليم فارس والحاكم الايراني في بوشهر . وفي ١٥ ديسمبر ارسل خطابا يشرح اهداف حكومة الهند من هذه الحملة الى مستر هـ. ويلكوك القائم باعمال سفارة صاحب الجلالة بطهران لاقناع بلاط الشاه (١٨).

ولقد لفتت الرسالة الموجهة الى الامير الفارسي لشيراز نظره « الى الفوائد التي ستنجم من مساهمة سموه في العمليات البرية ضد لنجة ، والاماكن الاخرى على الساحل الشرقي الخاضعة لنفوذ القواسم » (١٩) وقد أعلم كير الا يمنعه تردد الامير الفارسي « عن مهاجمة المخابىء القرصنية على الساحل الشرقي ، مع تقديم احترام لائق لحقوق السيادة الفارسية ... ان حاكم بومباى يضع في يدك حرية التصرف في التحرك » (٢٠) .

تشكيل الحملة :

تشكلت القوة المشاركة في الحملة من السفن التالية :

١) ليفربول وتحتوي على ٥٠ مدفعا وهي فرقاطة من البحرية الملكية ويقودها الكابتن اوغسطس كولير ،وقد وكلت اليه قيادة الجانب البحري في العمليات.

٢) الفرقاطة ايدن او عدن ، وهي ذات ٢٦ مدفعا ويقودها الكابتن دوك .

٣) الطراد كرلو ــ ويحتوي على ١٨ مدفعا ويقوده الكابتن واليرل .

وشاركت سفن من الشركة وهي :

٤) تايكناوث وتحتوي على ١٦ مدفعا .

٥) بنارس وتحتوي على ١٦ مدفعا .

٦) اوروا ــ ١٤ مدفعا .

٧) ترنت ــ وتحتوي على ١٦ مدفعا .

٨) اربال ــ وتحتوي على ١٠ مدافع .

٩) فستال ــ وتحتوي على ١٠ مدافع .

١٠) سيج وهي ذات ١٠ مدافع .

١١) ميركوري وهي ذات ١٤ مدفعا .

١٢) نوتيلوس وهي ذات ١٤ مدفعا .

واضيف الى ذلك عدد من السفن الخاصة بنقل الجنود بلغت ١٨ سفينة (٢١) .

اما القوات البرية فلقد تشكلت من القوات التالية :

- فرقة من المدفعية البريطانية ، وكانت المدفعية تتكون من بطارية ستة مدافع عيار ١٨ رطلا ، وعدد من مدافع المورتر عيار ١٠ بوصة ، وعدد اخر من الهويتزر عيار ٥½ بوصة ومدافع ميدان يتفق عددها مع احتياجات الجنود وعددهم .
- فرقتي صاحب الجلالة (٤٧) و (٦٥) .
- البطارية الاولى من الفرقة الثانية للهنود المشاة .
- جماعات الجناحين من البطارية الاولى للفرقة الثالثة هنود مشاة .
- بطارية بحريـــة .
- نصف فرقة من الكوماندوس .

وقد بلغ عدد جنود الحملة جميعا ٣٠٦٩ رجلا منهم ١٦٥٤ بريطانيا و ١٤٢٤ هنديا . وتكون مجلس القيادة من العقيد ا.ج ستانوس مساعدا للقائد العـــام ، والرئيس و . ويلسون مساعد القائد الاول ، والرئيس ج.ف سادلير مترجما . وقد حل محله لغيابه كابتن بيروست تومسون من فرقة صاحب الجلالـــة (٤٧) مدرعات (٢٢) .

وعلى الجانب الاخر نرى ان القواسم قد امتلكوا تحت حكم حسين بن رحمة « ارمادا » ضخمة تتكون من ٦٣ سفينة كبيرة تصل حمولة بعضها خمسين مدفعا وثلاثمائة رجل ، بالاضافة الى ٨١٣ قارب بوسعها حمل ١٩ الف رجل (٢٣) . وقدر عدد القوات القاسمية في راس الخيمة عند وصول الحملة بسبعة الاف رجل . لكن احد الضباط الذين ساهموا في القتال يذكر ما يلي :

« من تحرياتي التي قمت بها منذ نزولنا ، لا اعتقد بأن هذا العدد قد زاد في اى وقت ، على اربعة الاف رجل » ويظهر ان القواسم قاموا حين قدوم الحملـــة بارسال النساء والاطفال الى مزارع النخيل ، واستعدوا للدفاع بقيادة الزعيـــم حسين بن رحمة واخيه ابراهيم (٢٤) .

ابحر كير على « ليفربول » وعلى ظهرها القسم الاوروبي من الحملة مـــن بومباى يوم ٣ نوفمبر ١٨١٩ وتبعه بقية الحملة بعد ايام قليلة . ويشير لوريمر في توثيقه الرسمي لهذه الحملة الى ان القواسم قد واصلوا نشاطهم حتى النهاية ، ففي نهاية تشرين الاول كانت سفنهم تطوف كثيرا في مجموعات كبيرة حول شواطىء

مكران والسند وكينوار . وحين كانت السفينة «كرلو» في طريقها من بومباي للحاق ببقية الاسطول هاجمتها ١٥ سفينة كبيرة من سفن القواسم لكنها استطاعت ان تهزمها بعد معركة دامت اكثر من خمس ساعات . وبينما كان الاسطول في طريقه الى الموعد المضروب خارج قشم سار قائد الحملة الى مسقط فوصلها في ١٣ نوفمبر وعاد في ٢١ منه للحاق ببقية الحملة . وفي يوم ٢٤ هبت ريح شديدة اضطرت سفن الاسطول لان تلجأ الى مرسى في جزيرة لارك (٢٥) .

سير الحملة على راس الخيمة :

وصلت السفينة « ليفربول » والسفينة « بنارس » تجاه راس الخيمة وحاصرتا الميناء . على حين تحركت ناقلات الجنود حول مدينة قشم ، وخصص كير والمهندس الاول في الحملة يومي ٢٦ و٢٧ لفحص استحكامات المدينة ودفاعاتها، حيث ثبت انه يمكن الاستيلاء عليها دون حاجة لعدد من الجنود اكبر من الموجود فعلا في قشم ، وارسلت السفينة بنارس لتوجيه انذار للاسطول ، ووصلت السفن يوم ٢ ديسمبر ، وتبعها بعد ظهر اليوم السفن الاربع الاخيرة من الناقلات ، وكان قد تقرر الا تبقى في الانتظار خشية تقلب الجو . وفي نفس اليوم وصل السيد سعيد على راس فرقاطتين تحملان ٦٠٠ جندي (٢٦) .

يقول كيلي : ان القواسم قد قاموا منذ الحملة الفاشلة على راس الخيمة في نوفمبر ١٨٠٩ بتعزيز وسائل الدفاع عن البلدة بصورة مكثفة حيث اقيم حولها سور ارتفاعه نحو ٩ اقدام وعرضه قدمان ، كما بني حول البلدة سور آخر اقيمت عليه بعض البروج بارتفاع قدره ٢٠ قدما ، والى الناحية الجنوبية مباشرة اقيمت قلعة مربعة ، بالاضافة الى عدد من البروج الاخرى التي تحيط بالنصف الاسفل من شبه جزيرة راس الخيمة ، وكان بعضها يختفي وراء مزارع النخيل (٢٧) وحسب تقارير الفرقة ٦٥ مشاة البريطانية ، فان القلعة ذات البناء المربع من الحجر الصلد ، والواقعة على بعد ٢٥٠ خطوة من سور المدينة الجديدة ، كانت احصن قلعة شوهدت في الخليج (٢٨) وقد حفر القواسم استحكامات واقاموا متاريس لحاملي البنادق في المواقع المتقدمة .

وقع الانزال البريطاني في يوم ٣ كانون الاول واستهدف المنطقة الرئيسية من البلدة . كما احاط الجنود بالمنطقة من البحر وقد انقضى بقية اليوم في انزال المدافع والمؤن وفي حفر الخنادق وضرب الخيام . ولقد نزل الجنود بواسطة زوارق السفن على بعد حوالي الميلين من المدينة . وكانت الزوارق الكبيرة العائدة للسيد سعيد ذات خدمة كبيرة ، في حين عمل رجاله بنشاط كلي في انزال المدافع والذخائر (٢٩) .

وفي صباح يوم ٤ كانون الاول بدأ الجنود من الفرقتين (٤٧) و(٦٥) تحرشاتهم بالقواسم والتوغل الى خطوطهم الامامية ، وبحلول الظلام كانت القوات البريطانية

قد توغلت مسافة ٣٠٠ ياردة من القلعة الرئيسية . وقد تراجع القواسم الى القلعة والمدينة وسقط قائد البوليس الحربي العقيد موسورت قتيلا برصاص أحد القواسم في اثناء صعوده احدى الاستحكامات ليشرف على تحصينات المدينة . وقد اخذت البطارية البريطانية بالقصف من هذا الموقع القريب . ولكن احد مواقع بطاريات القواسم تمكن من تدمير هذا المتراس .

وفي الخامس من كانون الاول بدأت القوات البريطانية في قصف القلعة ، وقد اقترب « الطراد ليفربول » بقصف المدينة . ولم يؤثر ذلك على معنويات الذين كانوا يردون بمدافعهم وبنشاط . وكانوا احيانا يخرجون من خلف تحصيناتهم لمواجهة القصف البريطاني (٣٠) الذي كانت قذائفه تتساقط بعيدا عن الاهداف . وفي تلك الليلة اقيمت بطارية من اربعة مدافع على مسافة ٣٠٠ ياردة من البرج الجنوبي لراس الخيمة ، ووضعت بطارية من مدافع المورتر الى يمينها على مسافة ١٠٠ ياردة من حافة الميناء الداخلي . ولقد اسر احد القواسم في ذلك اليوم فافاد بأنهم قد عانوا خسائر كبيرة من جراء القصف البريطاني ، وانهم قد خسروا حوالي تسعين قتيلا وجريحا .

وشهد يوم ٦ كانون الاول انزال مدافع اخرى من الاسطول لتشديد القصف . وقد بدأ ضرب المدينة واستحكاماتها بمدافع الاسطول والمدفعية البرية . وكان رد القواسم ضعيفا نظرا لحاجتهم الى الذخيرة . ويورد لوريمر انهم كانوا يطلقون احيانا احجارا ضخمة من مدافعهم ، وكانوا حين يسكت ضرب المدافع البريطانية يبادرون الى جمع دانات المدافع التي لم تنفجر او التي اخطأت مراميها . وفي تلك الليلة استطاع القواسم ان يفاجئوا احد المتاريس البريطانية المتقدمة بهجوم انتحاري قاده ابراهيم بن رحمة ، فوقع اشتباك بالسلاح الابيض نجح فيه القواسم في السيطرة على احد مواقع المورتر . ولكنهم تعرضوا الى هجوم مضاد كبير قام به فصيل من الفوج الخامس والستين فدار قتال ضار ومميت ، وسرعان ما تعرضوا للطعن بالحراب ، فخسروا حوالي ٩٠ قتيلا وجرح قائدهم ابراهيم ، واضطروا الى الانسحاب . ويسجل كرانت قول جندي من كتيبة مدفعية بومباي عن هذا الهجوم على النحو التالي : « لا اقل من ثمانية رجال من فصيلتنا رقدوا موتى . خمسة منهم بدا بالتأكيد انهم قتلوا قبل ان يتاح لهم الوقت للمقاومة ، ولكن الثلاثة الاخرين كانت سيوفهم بأيديهم وعليها آثار دماء ، مما يدل على نجاحهم في قتل بعض القواسم » (٣١) هذا وقد كرر القواسم المحاولة قبل الفجر فقاموا بهجوم آخر ولكنه لم يحقق أي نجاح .

يرجع السبب في المقاومة الضعيفة التي جوبهت بها عملية الانزال الى الهجوم المضلل الناجح الذي قامت به « أورورا » و« نوتيلوس » اللتان تقدمتا الى قرب مدخل الخليج ، وفتحتا نارا حامية في ذلك الاتجاه ، مما جذب انتباه المدافعين .

شهد يوم ٧ كانون الاول انزال المزيد من المدافع بما فيها مدفعان من عيار ٢٤ رطل من الطراد « ليفربول » . وقد فتحت هذه المدافع نارها ، فأحدثت تأثيرا بالغا واهتزت ابراج القلعة تحت وطأة هذه القنابل ، وقد حاول القواسم الاستفادة من هذه القنابل ولكنهم وجدوها لا تلائم مدافعهم لكبرها ، فعادوا الى قنابلهم اليدوية والصخرية . وقد قال حسن بن رحمة فيما بعد انه كان يعتقد اجتماعا مع اتباعه ، حينما اخترقت قذيفة مدفعية بريطانية المجلس وانفجرت في الحال مما ادى الى قتل وجرح ما يقارب مائة رجل من اتباعه وخلقت ذعرا بليغا في اوساط القلعة (٣٢) . وطوال يوم ٨ ظل القواسم معرضين لنيران المدفعية بشكل دائم ، وطوال الليل ايضا استمر القصف . وهكذا فما ان شارف يوم الثامن من كانون الاول على الانتهاء حتى كانت اسوار القلعة قد تهشمت ، وقبل حلول الظلام ارتفعت الاعلام البيضاء عدة مرات من المدينة فلم يعرها المهاجمون اي التفات (٣٣) . وشهد يوم ٩ ضرب القلعة مرة اخرى . وفي الساعة الثامنة من الصباح نزل حوالي ١٠٠ جندي من فرق العاصفة الى جانب كل الفرق (٤٧) مشاة والفصائل الخفيفة من بقية الفرق الاخرى ، وبدأ الجميع التقدم لمهاجمة المدينة بقيادة الرائد الرنجنوت من الفرقة (٤٣٧) ، ولم يعترض تقدمها معترض ، وتبين ان اهل المدينة قد جلوا عنها تحت جنح الظلام فتم احتلالها بمجرد تجول القوات في طرقاتها وجمعت القوارب كلها في منطقة ضحلة المياه وارسل جزء منها الى المهرة حيث استولى على برج هناك . ويصف المؤرخ العماني ابن رزيق تلك الليلة على النحو التالي :

« فلما لاح الصباح ضاعف الانجليز على قلعة سدوره ضرب المدافع من البر والبحر ، وهدموها وركضوا على حال البلاد ، فاذادوا اهلها ، فبلغ هزيمهم الى الفحلين ، واشتغل الانجليز بنهب البيوت وتحريق سفائنهم وحملوا الى جلفار اموالا كثيرة ، واسروا ابراهيم بن رحمة ، وخاصته من الرجال ، ودمروا البلاد بالنيران تدميرا ثم رجعوا عنها بعدما تركوها قاعا صفصفا » (٣٤) .

دخل الجنود المدينة وبداوا عملية نهب كامل ، بالرغم مـــن اوامر القيادة العسكرية . وينقل العابد عن لو Low قوله ان خيبة امل المهاجمين كانت انهم لم يجدوا ما يسلبونه . فقد نقل القواسم معهم كل الاشياء الثمينة خارج المدينة ، ولم يخلفوا وراءهم سوى العجول والماعز . وقد شوهد الجنود الانكليز يسوقونها بشكل قطعان نحو الساحل ، وكل جندي لم يكن يسمح بالتدخل في غنيمته ونقلوا اكبر عدد من الماعز الى سطح السفن (٣٥) . وتم انزال العلم القاسمي الاحمر ، ورفع محله العلم البريطاني .

النتائج العسكرية

يجمل الجانب البريطاني خسائره كما يوردها لوريمر في ضابط واربعة جنود من القتلى وثلاثة ضباط و٤٩ جنديا من الجرحى ويورد قولا لشيخ القواسم ان

خسائرهم تصل الى ٤٠٠ رجل بين قتيل وجريح ، ويورد تقديرا لبعض المراقبين على ان هذا العدد يصل الى الف فرد . وتم الاستيلاء على حوالي ٦٠ او ٧٠ مدفعا معظمها من الحجم الصغير ، وبعضها غير صالح للاستعمال بالمرة ، كذلك تم الاستيلاء على حوالي ٨٠ سفينة تتراوح حمولتها بين ٤٠ و٢٥٥ طنا ولم يكن في المدينة سوى عدد قليل من الرجال والنساء المسنات ، وكان بعض الرجال من أسرى القواسم . وكان من الممكن ان تزيد خسائر القواسم لو ان الجنود التابعين لسعيد بن سلطان والذين ارسلوا برا قد وصلوا قبل انتهاء القتال والذي استمر لمدة خمسة ايام ، ولكنهم وصلوا بعد يومين من سقوط راس الخيمة . وقد اصدر القائد البريطاني اوامره برجوعهم فورا حيث خشي من بروز بعض مشاكل جديدة لا سيما في ما اتصل بنقص الامدادات . وقد بقي السيد سعيد بنفسه في مكان الموقعة حتى يوم ٧ كانون الثاني حين عاد الى مسقط .

وقد تقدم حسن بن رحمة لتسليم نفسه بعد ظهر يوم ٩ وجاء معه معظم من بقي على قيد الحياة من رجاله .

معركة « ضيـــة »

بعد الانتهاء من معارك راس الخيمة ، اتجهت القوات البريطانية الى رمس وهي مقر قاعدة الزعيم الشهير حسن بن علي نائب الوصي السابق على الاتحاد القاسمي . وقد تحركت السفن « كيرلو » و« اورورا » و« نوتيلوس » لحصارها لحين تقدم قوات الحملة . وقد تبين ان سكان المدينة قد انسحبوا الى قلعة «ضية» الواقعة في التلال عند مدخل خليج صغير ، والتي تبعد حوالي الميلين عن ساحل البحر . وقد قدر عدد المقاتلين في هذا الحصن بـــ ٤٠٠ رجل بقيادة حسين بن علي.

يقول العابد : ان حصن ضية هذا ، كان يعتبر المفتاح الشمالي لراس الخيمة لانه يتحكم بقوة بالممرات والتلال والطريق الساحلي الموصل اليها . ولحصانته فقد اعتقد ان مدافع البريطانيين لن تؤثر في تحصيناته . وعلى ذلك فقد اتخذ البريطانيون « الاجراءات للاستيلاء عليها لما سيحدثه ذلك من هبوط للروح المعنوية بينهم » (٣٦) (القواسم) . وفي يوم ١٨ كانون الثاني تقدمت قوة مكونة من فرقة صاحبة الجلالة (٦٥) والعناصر الخفيفة من البطارية الاولى في الفرقة الثانية للمشاة الهنود ، و٣٠ جنديا مدفعيا يعملون على مدفعين زنة ٢ رطل ، ومدفعي مورتر عيار ٨ بوصة ، واربعة مدافع ميدان نحو ضية بقيادة العقيد وارين من الفرقة (٦٥) وقد صحب سير وليام جرانت كير هذه الحملة بنفسه ، ورافقه الكابتن كولير فوصلا في نفس اليوم .

شهد يوم ١٩ محاولة دفع القواسم نحو الحصن ، ويصف لوريمر ذلك قائلا « بدا تراجع العدو الى الداخل وهو يحارب في كل شبر أثناء انسحابه وسط

مزارع النخيل » (٣٧) وحين طلب الى الشيخ الاستسلام راوغ في الاجابة ، فبدأ مدفعان من مدافع المورتر قصف القلعة قصفا متواصلا . وعندما وصل كير الى ضية اكتشف ان اقتحام القلعة لا يمكن ان يتم الا بعد قتال عنيف ولذلك عاد بطلب امدادات من الفرقة (٤٧) والفصيلة الاولى والثالثة ، وتم انزال مدفعين كبيرين من الطراد « ليفربول » وتم نقل تلك المعدات بصعوبة كبيرة الى نقطة قريبة من المرتفع ، وقام بذلك بحار الطراد « كيرلو » . وفي يوم ٢٠ ازداد تقدم القوات المهاجمة بعض الشيء ، وعززت باضافة العناصر الخفيفة من فرقة صاحب الجلالة الجلالة (٤٧) بقيادة الرئيس باكهاوس ، وبالبطارية الاولى من الفرقة الثالثة مشاة الهنود .

وفي صباح يوم ٢١ تم حصار ضية وتطويقها تماما . وقد لقي أحد الضباط البريطانيين ا.ج ماتيسون من الفرقة (٦٥) مصرعه اثناء هذه العملية ، وكان سحب المدافع قد انجز وسط صعوبات ، اذ كان يجب سحب المدافع لمسافة ثلاثة اميال صعودا ، في خور ضيق وعر وضحل المياه يبدأ بأرض موحلة وينتهي بصخور جيرية . ونصب المدفعان في مواجهة القلعة من الناحية الشمالية الشرقية ، كذلك وضع مدفعان ، اخران من عيار رطلين في مواجهة قصر الشيخ من الناحية الغربية.

وقد قامت القوات البريطانية باعطاء القواسم مهلة لاخراج النساء والاطفال، فلم يرد القواسم . وفي الساعة ٨ر٣٠ من صباح يوم ٢٢ فتحت النيران وتم احداث صدع في الساعة الثانية عشرة في جدار القلعة وتقدم طابور من المشاة لعبوره ولكنهم توقفوا اثر مشاهدة العلم الابيض مرفوعا . واعلن المحاصرون الاستسلام بشرط ضمان حياتهم على ان يسلموا اسلحتهم وممتلكاتهم . وفي الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر تمت السيطرة على ضية ورفع العلم البريطاني على قصر الشيخ . وتم على الاثر اقتياد الاسرى وعددهم ٣٩٨ أسيرا الى رمس وذلك لنقلهم الى راس الخيمة . وقد تم اطلاق سراح بعضهم حينما شهد المقيم السياسي بروس بأنهم على الاغلب مزارعون . وتبقي ١٧٧ اسيرا عدا الشيخ وكانوا بين محارب محترف او رجل اخر ينتمي الى بلدة اخرى كانت الحملة ستتجه اليها . وقد نقلوا الى راس الخيمة . كما تم الاستيلاء على ١١ مدفعا وهدمت القلعة وقصر الشيخ ، وبلغت خسارة البريطانيين في عملية ضية كلها ضابطا وثلاثة جنود من القتلى و١٦ جريحا وتوفي احدهم متأثرا بجراحه ، ولم تحدث اية خسائر بين الجنود الهنود .

وعادت الحملة الى راس الخيمة . ويصف احد الضباط ، الذين شاركوا في الهجوم الاخير ، راس الخيمة عند عودته من هذه المهمة ، بقوله « حين وصلنا راس الخيمة ، وجدنا المدينة مخربة تماما فقد جرى نسف القلاع والابراج من قبل الجنود والبحارة » (٣٨) .

يقول كيلي انه بعد احداث راس الخيمة ورمس في ٢٢ كانون الثاني ١٨٢٠ بقيت مهمات يجب انجازها على البريطانيين . وذلك مثل تدمير جميع تحصينات راس الخيمة تدميرا تاما وتفتيش جميع المواني الي جنوبها بحثا عن السفن التي تكون مختبئة فيها كما تعين على كير أن يتخذ قرارا بشأن مصير الاسرى الذين كان اكثرهم بما فيهم حسين بن رحمة وحسين بن علي مرضى او جرحى . وكذلك الوصول الى تسوية سياسية تضمن ان لا يعود القواسم الى ممارسة «ارهابهم» للمياه الواقعة بين البصرة وبومباى (٣٩) . ولم يتلق كير اى تعليمات حتى ذلك الوقت ، وكان الوقت يجري بسرعة ، وكان لا بد للاسطول من مغادرة المنطقة قبل ان تسوء الاحوال الجوية .

وقد شهدت بداية كانون الثاني مجيء اكابر شيوخ المنطقة الى مقر كير . ولقد رغب كير ان يكسب الوقت والذي من خلاله تلقى الاوامر من الهند ليؤكد للشيوخ انهم لن يفلتوا . وكان كير قد وجه الدعوة الى هؤلاء الشيوخ للحضور والتوقيع على اتفاقيات يسلمون بموجبها جميع السفن التابعة لهم باستثناء سفن الصيد وتسليم اي اسير هندي قد يكون لديهم . وقد استغل كير هذه الاتفاقيات حيث امر بعض القوات بتفتيش جميع المواني ابتداء من راس الخيمة وحتى دبي وتم تدمير جميع التحصينات والسفن التي وجدت في هذه المواني وتقدر قيمتها الاجمالية بما لا يزد على ٣٠٫٠٠٠ جنيه استرليني. ولما لم تصل اية أوامر لكير حتى الاسبوع الثاني من كانون الثاني ١٨٢٠ قرر ان يفرج عن السجناء بعد ان اخذ سكان راس الخيمة يتذمرون من احتجاز شيوخهم .

وفي يوم ٨ كانون الثاني استدعى كير حسن بن رحمة وابلغه ان قرار احتجازه يقوم على اساس انه الشيخ المسؤول في راس الخيمة ثم قدم له مسودة معاهدة للسلام كان كير قد اعدها بالاشتراك مع معاونيه وتنص ديباجة المعاهدة على ما يلـــي :

« بسم الله الرحمن الرحيم والحمدلله الذي جعل السلام بركة على الناس وانه بناء على ذلك يتفق الطرفان على توطيد السلم بين الحكومة البريطانية والقبائل العربية الموقعة على هذا العقد وذلك على الشروط الاتية .. »

وقد اشتملت على خمسة بنود (٤٠) .

وقد وقعها في ٨ يناير كل من حسين بن رحمة وشيخ جزيرة الحمراء ، وبعد ثلاثة ايام وقعها طحنون بن دياب نيابة عن والده . وكان شيخ رمس حسين بن علي قد وقع عليها يوم ٨ بدوره .

كانت الاتصالات التي اجريت مع فارس قد شهدت روحا عدائية برزت في آخر الرسالة التي وجهها امير شيراز الى كير ، ولكن ذلك لم يثن كير عن استكمال

الشق الثاني من حملته .

وقام الكابتن لوك قبطان (ايدن) واثناء توجهه الى البحرين ترافقه « كيرلو » و« نوتيلوس » لتنفيذ الامر الصادر اليه بالتحري عن السفن القاسمية التي قد تكون لجأت الى هنـــاك ، بمهاجمة ثلاث سفن راسية في عسيلوه على الساحل الشرقي حينما شك بكونها تابعة للقواسم . فاحرق سفينتين وسحب الثالثة لدبي . وفي كنجون عثر على سفينتين اخريين تابعتين للنجه فقام باحراقهما ايضا . وحين وصل الى البحرين بادر شيخا الجزيرة سلمان بن احمد وعبدالله بن احمد الى تسليمه ١٢ سفينة تابعة للقواسم كانت راسية في الميناء . وقام لوك باحراقها . وعلى اثر تلك الاجراءات قام كير بالتوقف عن اية اجراءات على الساحل الفارسي بسبب تشككه في وجود صلة بين تلك الموانى والقرصنة ، ثم قامت حكومة بومبـــاي بالتعويض عن السفن التي احرقت في الساحل الفارسي .

كانت الحملة قد تركت حامية في راس الخيمة مكونة من ٨٠٠ جندي هندي وعدد من رجال المدفعية ، وسارت بقيتها متجهة الى الموانى القاسمية في جزيرة الحمراء فوجدتها مهجورة تماما ، ولكنها هدمت الاستحكامات التي وجدتها في ام القيوين وقد وصلتها في ١٨ كانون الثاني وكذلك فعلت في عجمان ونشت والشارقة وابو حائل ودبي كما احرقت السفن التي عثرت عليها ، ويقول لوريمر ان مصير سفن راس الخيمة غير معروف على وجه اليقين وذلك لان كير كان يعارض تدميرها، وقد ابقى جزء منها لخدمة الاسطول. وكانت الحملة قد استولت على ٢١٨ سفينة. وفي شباط قامت ناقلات الجنود التي تحمل معظم افراد الحملة بالعبور الى جزيرة قيس ، وهناك اعلنت نهاية عملها في آذار ١٨٢٠ ضد موانى القواسم ، وقفلـــت عائدة الى بومباي .

ثالثـــا : النتائج العامة للحملـــة :

وقع جرانت في البداية بين ٦ــ١١ كانون الثاني ١٨٢٠ معاهدات مع معظم رؤساء القبائل الذين لهم سيطرة مستقرة في المنطقة الواقعة ما بين قطر وحدود سلطنة عمان ، وتتناول هذه المعاهدات الاجراءات العملية المناسبة من وجهة النظر البريطانية لكل مشيخة من هذه المشيخات ، اي لم تتشابه اي معاهـــدة والاخرى . وقد وقعها كل من سلطان بن صقر ووقعها شيوخ ابو ظبي وام القيوين وعجمان والشارقة (٤١) . ويقول لوريمر ان الاهداف الرئيسية للاتفاقيات بشكل عام كانت « هي تسليم السفن والابراج والمدافع على اساس وعد باستمرار عمليات الغوص على اللؤلؤ وصيد الاسماك واطلاق سراح الاسرى الهنود» (٤٢). ثم عرض فيما بعد نص معاهدة عامة على الخمسة مشايخ تاركا الباب مفتوحـــا لغيرهم للدخول فيها اذا قبلوا الارتباط بالمبادىء العامة التي تحتويها ويتعلق معظمها

بتنظيم قواعد الملاحة ولا يعدو بعضها ان يكون مبادىء اولية في القانون البحري على حد قول الدكتور العقاد (٤٣) .

ونورد هنا مادتين وردتا في تلك الاتفاقية « الاولى : وهي المادة ٤ وتشير صراحة الى ان الحكومة البريطانية ليست صاحبة اي مطامع سياسية او اقليمية في منطقة الخليج وانها لا تتدخل في النزاعات والخلافات المحلية » ، والمادة الاخرى هي المادة ٩ وقد ادخلت على الاتفاقية بطلب كابتن تومسون وتنص على منع تجارة الرقيق بين العرب المتصالحين منعا باتا « والشيء المدهش هو انّ هذه المادة قد قبلت دون تذمر من الشيوخ » (٤٤) .

شكلت هذه الاحداث بداية عصر جديد تماما في الخليج والحدود الشرقية في الوطن العربي ، لقد دقت بريطانيا عرب الجانب الشمالي من عمان كلهم بتحطيم منحرة القواسم صقور البحر (٤٥) . وليس ذلك فقط بل ان ذراع العرب المسلح وقوتهم البحرية الاولى في المحيط الهندي قد وجهت لها ضربة قاصمة .فبعد ان هيض جناح من جناحي عمان،لم يعد من الصعوبة الاجهاز على الجناح الثاني ،وان كان ذا امكانيات وقدرات اكبر واشمل . وهذا ما قامت به بريطانيا فيما بعد ، عبر اجراءات اقتصادية وعسكرية وسياسية تدريجيا عبر حياة سعيد بن سلطان وخلفائه . وانتهى الاسطول العماني عبر الاهداء لبريطانيا ، او عبر تجريده من قدراته العسكرية ثم الاقتصادية حتى اضحى الاسطول العماني الشهير كتلا من الخشب الطافي قبالة مسقط تعلوها العفن .

كانت الاساطيل الاوروبية قد امتلكت تقنية جديدة ، وادخلت على القوات العسكرية بمختلف فروعها ، تطويرات جديدة ، في حين لم يكن لدى القواسم « مثل هذا النظام بل كل ما عندهم التقاحم على العدو المهاجم ، فاما لهم واما له ، والان لا يتفق لهم ذلك قد اشتبك البحر والبر معا » (٤٦) . ولقد قاتل رجال راس الخيمة وناضل ابطالها ودافع جنودها ، الا ان الهيل زاد على الكيل ، فلم يقدر القواسم على دفع العدو المهاجم ، ولم تترك بريطانيا نقطة في الخليج تظن ان القواسم يلجأون اليها او تختفي سفنهم فيها الا تتبعوها من البحرين الى الاحساء والقطيف والبحر الاحمر والساحل الايراني . والحرب نار تلتهم ما تجد ، وتحرق ما تلاقي ، وحرب القوي تسبب الغلبة للضعيف » (٤٧) . كانت تلك التقنية تفرض على الفور تفاوتا بين الاوروبيين وبين القوى العربية التي امتلكت سيطرة على المياه بحق الموقع الجغرافي بامتلاكها للقدرة العسكرية للدفاع عن وجودها هناك . ومنذ ان جاء البرتغاليون ، استمر العرب في الدفاع عن مناطقهم ومجالاتهم الحيوية بالاعتماد على ذلك الحق وعلى الشجاعة اساسا ، وظلت التطويرات التي يلحقونها باساطيلهم تسير متخلفة عن تلك التي يدخلها الاوروبيون ، ولم يستمر الخط الذي تبناه اليعاربة في محاولات تحديث الاسطول في النمو بعد عقود من وفاة الائمة الذين

اختطوه . وحتى ذلك النهج لم يسر باتجاه الوقوف على كامل التطورات العلمية والتقنية التي شملت كل الجوانب في الحضارة الاوروبية . فتركيب مدفع حديث في سفينة لا يعني امتلاك القدرة على تصنيع المدفع .

جسد القواسم ، بقوتهم العسكرية تعبيرا جديدا عن الحقوق القديمة والمستمرة ، وهو تعبير يرتكز على التحالف مع مركز الجزيرة العربية ويطمح الى مد هيمنته الى مجمل المنطقة العمانية ، تمهيدا لبروز قوة عسكرية موحدة تستعيد شيئا من الوزن في ذلك المحيط وفي تلك المياه . فالقواسم عرب من امجاد العرب واعمالهم من أهم أعمال العرب وان حاولوا الاستقلال بالسلطنة عن سلاطين عمان آل بو سعيد بن سلطان ، فان الاخوة انفسهم ما زالوا يقتتلون على سلطنتها . . . والدنيا كما يقول المتنبي « لمن غلب » (٤٨) .

والصراع الذي جرى بين العرب انفسهم وبالتحديد بين اقوى قوتين بحريتين وهما البحرية البوسعيدية والبحرية القاسمية انما كان يسير ضمن نفس الصراع الذي كان يجري بين الوحدة والتجزئة ، كان هذا الصراع يستهدف الوحدة والتي كان سيتم التوصل اليها اما سلما او عنفا ، اما باتفاق الطرفين وتحالفهما وتوحدهما او باقتتالهما حتى يتغلب الاقوى وبالتالي عودة الوحدة مجددا عبر الصراع . ولكن كان هناك عامل جديد قد برز يملك التفوق ، ويجد المصلحة في عدم بروز قوة موحدة . واذا كان القواسم قد تجاهلوا هذا العامل واصروا على خوض الحربين الداخلية ضمن الصف العربي والخارجية ضد العدو الاجنبي ، دون ان يعملوا على امتلاك القوة التقنية والتطور العلمي الجديد والذي بات ضروريا لمواجهة هذا الغازي الذي جاء حاملا كل الاحقاد الاوروبية ، وكل التعارض في المصالح ضد المصالح العربية الشرعية في تلك الارجاء ، اذا كان ذلك هو حال القواسم ، فان سعيد بن سلطان وقع في فخ التحالف مع البريطانيين ظنا انه سيتمكن من تحقيق وحدة القوى العربية في تلك المنطقة عبر الاعتماد على القوى الاجنبية التي اضحت متواجدة في تلك المياه . وهذا المعضل كثيرا ما واجه القوى العربية ، وذلك بسبب وقوع القوى العربية في موقع متوسط . وبين تخوم العديد من القوى الاجنبية . ولم يخسر سعيد بن سلطان ساحل عمان فقط بل ان الخبث البريطاني والتناقض في المصالح كان يعمل من اجل تقويض امبراطوريته . وهكذا ما ان مات سعيد بن سلطان في العام ١٨٥٦ حتى كانت بريطانيا مستعدة لتحقيق انفصال المناطق الافريقية عن بقية جسم الامبراطورية العمانية وليقف الاسطول البريطاني مانعا ثويني بن سعيد بن سلطان من استعادة سلطة المركز على زنجبار وبقية المناطق التي اعلنت انفصالها تحت سيطرة اخيه ماجد .

ولم يفت بريطانيا مثلها مثل اي من الدول الاجنبية الكبرى الطامعة في استعمار المناطق العربية التأكيد على انها قد قدمت دونما اي مطامع وانما تستهدف

تحقيق السلام ،وجعل رايته خفاقة في سماء الخليج. ونصبت نفسها مدافعا عن حق الرقيق في الانعتاق ، وايقاف الاتجار بالبشر . وكانت تخفي مصالحها التي اصبحت تتمثل في الرغبة في ابقاء ابناء افريقيا في مناطقهم الاصلية لتشغيلهم هناك وفي محاولة للنيل من عنصر اساسي من عناصر القوة الاقتصادية وللحصول على الحق بالتفتيش على السفن العربية بحجة البحث عن تجار الرقيق وتجارتهم . ولا يجب ان يؤخذ هذا الحديث كنوع من الدفاع عن الرقيق والاتجار به ، وانما لكشف الدوافع التي تقف وراء اطروحات الدول والتي تغلف بالمبادىء الانسانية . ثم ان هذا شان يخص العرب والافارقة ، ولكن بريطانيا وجدت فيه مدخلا لتحقيق الشقاق والخلاف بين العرب والافارقة وذلك ما يسحب تاثيره الى يومنا الحاضر .

يقول العابد : ان ازدياد النشاط القاسمي قد تعارض مع تزايد الهيمنة البريطانية في جهات شبه القارة الهندية والبحار الشرقية ، فكان على بريطانيا ان تسعى للقضاء على هذه القوة التي شكلت تهديدا مباشرا على امن مواصلاتها البحرية مستعينة بأساليب دبلوماسية واخرى عسكرية في الفترة الواقعة بين ١٨٠٥ و١٨٢٠ . وهناك جملة من العوامل التي ساعدت بريطانيا على تحقيق ذلك الهدف اخيرا ، منها تمكنها من تحطيم المنافسة الفرنسية في منطقة المحيط الهندي ، باستيلائها على قاعدتي فرنسا الرئيسيتين في جزيرة بوربون وموريشيوس في ١٨١٠ ، وتخلصها من المخاطر الفرنسية على مصالحها الشرقية اثر اندحار نابوليون في ١٨١٥ ، ونجاح بريطانيا في تحطيم اتحاد الماهراتا في الهند بشكل حاسم في اوائل سنة ١٨١٨ ، وكذلك انهيار السند البري القوى للقواسم المتمثل في سقوط الدرعية سنة ١٨١٨ .

ويضيف العابد قائلا ان بريطانيا قد وضعت مخططها الهادف لتدمير الاتحاد القاسمي متعاونة في ذلك مع عدو القواسم التقليدي . وكان من حصيلة ذلك المخطط ، حملة ١٨١٩ — ١٨٢٠ الكبرى والتي حققت بريطانيا بواسطتها خطوة رئيسية في سياستها الهادفة للسيطرة على الخليج العربي وذلك بالقضاء على القواسم عسكريا بتدمير اسطولهم البحري ، وسياسيا بتفتيت الاتحاد القاسمي وتكبيل مشايخ القواسم بقيود ثقيلة تضمنتها الاتفاقيات الاولية ومن ثم معاهدة السلام العامة التي عقدت في اوائل ١٨٢٠ . تلك الاتفاقيات التي اصبحت نموذجا تحتذي بريطانيا به تجاه المشايخ الاخرين من ذلك التاريخ . لقد استهدف كير بادخاله شيخي عجمان وام القيوين في المعاهدة العامة وضع الحد لادعاءات القاسمي سلطان بن صقر الذي صرح في السابق انهم من رعاياه (٤٩) . وبالتالي باتت بريطانيا على علاقات مباشرة مع حكام الاتحاد القاسمي ، بل واضحت حكما بينهم كما سيبرز ذلك في المستقبل . ويقول العابد بهذا الصدد ان بعد نظر كير ودهاءه السياسي برزا بوضوح عبر الاجراءات التي اتخذها ، وحالت دون انبعاث جديد للاتحاد القاسمي عن طريق تحطيم سلطة الشيخ القاسمي ، وبذلك لن يواجه

البريطانيون خطرا من قوة متحدة ، تستطيع ان تسبب خطرا على مركز بريطانيا المتفوق في الخليج فيما لو تمكنت من ان تنفض عنها آثار الهزيمة العسكرية الاخيرة.

وبانتهاء هذه الحملة اضحت الرؤى ، والمطامع البريطانية تتبلور اكثر واكثر ، وخلال العقود الثمانية سيضحي الخليج « بحيرة بريطانيا » على حـــد قول اللورد كيرزون ، وسيرفرف عليها « السلام البريطاني » الذي ارتكزت سياسته على اساس تثبيت التفوق البريطاني المطلق واضعاف القوى العربية البحرية وتحويلها الى قوى هامشية تعيش على ما تتركه السفن التجارية البريطانية من نشاطـــات لا تلائمها او لا تدر عليها الارباح . وعملت على تحقيق تقسيم المنطقة ، وابعادها عن المراكز العربية وفرض معاهدات تجعل من هذه العزلة قانونية وشرعية » . وجعلت من اسطولها وقواعدها الموجودة بأقل ما يمكن من التواجد ولكن التي تمتلك مرونة كبيرة للتزايد والاتساع حسب حاجة عصاها الغليظة التي هددت بها المنطقة طيلة قرن ونصف من الزمان . وتم كل ذلك على حساب تدهور القوى العربية واضمحلالها .

الهـــوامش

١) سالم بن حمود السيابي ، **ايضاح المعالم في تاريخ القواسم . صقور البحر العماني** . دمشق المطبعة التعاونية ، ١٩٧٦ ، ص ٦٩ .

٢) الدكتور صلاح العقاد ، **التيارات السياسية في الخليج العربي** ، القاهرة ، مكتبة الانجلو مصرية، ١٩٧٤ ، ص ٩١ .

٣) ج.ج لوريمر ، **دليل الخليج** ، القسم التاريخي ، الجزء الثاني ، طبعة جديدة معدلة اعدها قسم الترجمة بمكتب امير دولة قطر (خليفة بن حمد آل ثاني) ص ١٠٠٥ ــ ١٠٠٦ .

٤) صالح محمد العابد ، **دور القواسم في الخليج العربي ١٧٤٧ ــ ١٨٢٠** ، بغداد مطبعة العاني ، ١٩٧٦ ، ص ٢٩٥ .

٥) جون ب. كيلي ، **بريطانيا والخليج ١٧٩٥ ــ ١٨٧٠** ، ترجمة محمد امين عبدالله ، سلطنة عمان وزارة التراث القومي والثقافة ، ١٩٧٩ ، الجزء الاول ، ص ٢٣١ .

٦) لوريمر ن.ص .

٧) كيلي ن.ص .

٨) كيلي ص ٢٣٢ وما بعد .

٩) كيلي ص ٢٤٤ .

١٠) لوريمر ص ١٠١٣ — ١٠١٤ .

١١) لوريمر ، ص ١٠٠٦ .

١٢) كيلي ص ٢٣٨ .

١٣) لوريمر ، ص ١٠١٢ — ١٠١٣ .

١٤) عبدالله بن حميد السالمي ، **تحفة الاعيان بسيرة اهل عمان** ، القاهرة ، مطبعة الامام ، لات ، ط وقد بدىء في تأليف الكتاب في ١٣٣٠ هـ ، ج ، ص ١٥٩ .

١٥) السيابي ، ص ١٥٣ .

١٦) حميد بن محمد بن رزيق ، **الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين** ، تحقيق عبد المنعم عامر والدكتور محمد مرسي عبدالله ، الف الكتاب سنة ١٢٧٤ هـ وطبع بالقاهرة : مطابع سجل العرب ١٩٧٧ ، ص ٥٢٠ .

١٧) كيلي ، ص ٢٥٣ .

١٨) لوريمر ، ص ١٠١٣ .

١٩) العابد ، ص ٣٠٧ .

٢٠) ن.م.

٢١) اعتمدت في كتابة تسلسل المعارك على مؤلفات كيلي ، والعابد ، ولوريمر ، وجرت الاشارات التفصيلية حينما بدت انه ضرورة التنويه .

٢٢) لوريمر ، ص ٩٨٦ — ٩٨٧ .

٢٣) Wendell Phillips. Oman, a History, Lebanon, Libraire du Liban, 1971, P. 92

٢٤) العابد ، ص ٣١٢ .

٢٥) لوريمر ، ص ١٠١٥ .

٢٦) كيلـــي ، ص ٢٥٣ .

٢٧) لوريمر ، ص ١٠١٥ وما بعد .

٢٨) كيلي ، ص ٢٥٤ — ٢٥٥ .

٢٩) العابـــد ، ص ٣١٢ .

٣٠) كيلـــي ن.ص .

٣١) العابد ، ص ١٣ — ٣١٤ .

٣٢) Phillips, P. 95 .

٣٣) العابـد ، ص ٣١٥ .

٣٤) ابن رزيق ، ص ٥١٨ .

٣٥) العابد ، ن٠ص .

٣٦) لوريمر ، ن٠ص .

٣٧) ن٠ص

٣٨) العابد ، ص ٣١٩ وما بعد .

٣٩) كيلي ، ص ٢٥٦ وما بعد .

٤٠) ن٠م .

٤١) العقاد ، ص ١٠٤ .

٤٢) لوريمر ، ص ١٠٢٣ .

٤٣) العقاد ، ن٠ص .

٤٤) لوريمر ، ١٠٢٥ .

٤٥) السيابي ، ص ١٦٦ .

٤٦) السيابي ، ص ١٥٣ .

٤٧) السيابي ، ص ١٥٤ .

٤٨) السيابي ، ص ١٢٢ .

٤٩) العابد ، انظر ص ٣٣٢ ، و ص ٣٤٥ ـــ ٣٤٦ .